الباب الثاني:

الإنسان والحرب

الفصل الأول:

الإنسان والحرب في العصور القديمة

في كتابه: "**لماذا تتحارب الأمم: دوافع الحرب في الماضي والمستقبل**"، يذكر الباحث الأمريكي ريتشارد نيد ليبو أستاذ الذكرى المئوية بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، أن العنف العنف الذي تمارسه جماعة ما ضد أخرى، يمثل ممارسة موجودة منذ قديم الأزل. يمكن تمييز الحرب عن العنف بأهدافها السياسية ومفاهيم الأطراف المشاركة فيها حول طبيعتها الخاصة. تم شن الحروب الواسعة النطاق من قبل الامبراطوريات القديمة. وعلى مر القرون بدأت تخضع لقواعد معينة على نحو تدريجي. في العالم القديم، كانت الحرب المبنية على القواعد أقوى ما تكون في اليونان القديمة، حيث كانت تمثل وسيلة مقبولة لتسوية الخلافات حول: المكانة، الشرف، والأرض. كانت حروب الأزتيك أيضاً

محددة النمط للغاية، كما كانت موجهة إلى خدمة أهداف سياسية ودينية. والمثير أن ريتشارد نيد ليبو يذهب إلى أن الاتفاقيات السياسية والعسكرية للأزتيك ربما كانت مسئولة عن هزيمتهم أمام الإسبان، أكثر من امتلاك الإسبان الخيول والأسلحة النارية.

وكما تشير الحقيقة التاريخية السابقة، فإن من اليسير أن نقرر أن "**السلام ثقافة**" و"**الحرب ثقافة**"، بقدر ما هي على المستوى السياسي اختيار وعلى المستوى الميداني القتالي مهارة وقدرة على القتال. ورغم أننا لا نعرف الكثير عن الحرب في عصور ما قبل التاريخ (والكلام للباحث الأمريكي ريتشارد نيد ليبو)، إلا أننا نستطيع أن نفترض على نحو معقول أنها نشأت عن صراعات على: النساء، وآبار السقي، وأراضي الصيد، والأراضي التي اعتبرت ذات قيمة لأسباب دينية أو اقتصادية. وفي وقت مبكر، أصبحت الحرب الوسيلة الرئيسة التي يسعى من خلالها الشبان ومجتمعاتهم إلى الحصول على الشرف، والهيبة، والمكانة.

ولاحقاً، نجد العسكرية — كرؤية اجتماعية وثقافية — أصبح لها منذ وقت مبكر فلاسفة ومتخصصون وواضعو نظريات، وقد بدأ الألمان ذلك منذ بسمارك وتوالت نظرياتهم العسكرية فيما بعد ذلك حتى انتهاء

الحرب العالمية الأخيرة، ورغم أن الإنجليز كانوا أقل اهتماماً من الألمان فى هذا المجال، فإن "**الفلسفة العسكرية**" هى التى تغلب على مؤلفات ونستون تشرشل إلى حد إيمانه بأن "**التاريخ تصنعه المعارك الكبرى**". كما أن الفيلد مارشال مونتوجومرى انكب بعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة على كتابه ملحمة عسكرية تاريخية عن تاريخ الحروب فى العالم القديم والوسيط والحديث.

ولأن الحرب ظاهرة "**إنسانية**" قديمة قدم المجتمع الإنساني نفسه، ولأن الدوافع إلى قيامها لم تختلف كثيراً فى العالم القديم عنها فى العالم الحديث، فقد حظيت بالاهتمام والدراسة من جانب العسكري والمؤرخ الاقتصادي وعالم الاجتماع، وذلك لأنها لا تخص مستقبل الجنود فقط بل مستقبل حياة مليارات المدنيين.

ومن ثم أدركت الأمم الكبرى أهمية هذه الدراسات فأنشأت لها المعاهد والأكاديميات، وخصصت لها أساتذة وعلماء وأصبح هناك تخصص معروف وهو الدراسات الحربية، وليس كل هذا بكثير على الحرب، فهي ظاهرة غير عادية تقرِّر مصير الإنسان والاقتصاد، وما يتلو ذلك من مآسٍ سياسية واجتماعية منها ما هو مباشر، ومنها ما يتخلف

لسنوات مستقبلة حيث يؤثر فى كافة تيارات الأمة ويشكل تاريخها لعدة قرون.

ويعرف المؤرخون جيداً أن أهم خطرين على الإنسان فى العصور القديمة كانا: انتشار الوباء وقيام الحرب، ولقد أمكن التقدم العلمي فى مجال الطب الإنساني الحديث من السيطرة على انتشار الوباء بل القضاء عليه، لكنه لم يستطع حتى اليوم التغلب على قيام الحروب لدرجة أن بعض المؤرخين المتشائمين راحوا يرددون أن الحرب حتمية على بني الإنسان، تفرضها عليهم قوى خفية أشبه بقوى القدر، وأن حماية الله هي وحدها القادرة على وقفها، بل آمن فريق آخر بأنها ظاهرة طبيعية للحفاظ على العدد المعقول من سكان الأرض، وبدون قيامها سوف يزداد عدد السكان لدرجة تهدد بقيام المجاعات، لكن هذا الرد مرفوض، لأن التقدم العلمي لم يشمل بعد كل جنبات الأرض ومصادرها من بحار وصحارى وغابات وربما — من يدري — إلى الكواكب الأخرى!!!

بداية الأرستقراطيات العسكرية الحاكمة:

إن نتائج معظم الأبحاث التى أجريت على هذه الظاهرة تكاد تتفق في أن الحرب انفجار سياسي يؤدي إلى القتال، وأن هذا الانفجار يحدث عادة نتيجة لتفاعل عوامل كثيرة، أهمها العوامل الاجتماعية والاقتصادية ونظم الحكم في البلاد، وبالتالي فإن الحرب صراع سياسي بالدرجة الأولى. لكن دراسة الحرب قديماً تقتضي تناول علاقتها بالبنية السياسية للدول قديماً ودورها في بناء الحضارات وانهيارها.

كثيراً ما يقال، وكأنما هذا القول سنة من سنن الطبيعة، إن الحضارات تقوم ثم تعيش عصرها ويكون مصيرها بعد ذلك الزوال. ولا شك أن دراسة التاريخ دراسة سطحية تؤيد هذا الرأي الي حدٍ ما، فالواقع الذى لا مراء فيه أن كل الحضارات القديمة زالت من الوجود. ونستطيع أن نؤكد هنا أن الشعوب التى اعتلت خشبة المسرح في أماكن عديدة من خريطة العالم قديماً كانت كلها من الشعوب المقاتلة التى احتلت مراكزها بطريق الغزو، والحق أن الحضارات القديمة لم تسمح لها الظروف أن تعمر طويلاً دون تعرُّضٍ لهجوم خارجى، بل سرعان ما كان يهاجمها شعب مقاتل من هنا أو من هناك، ويحاول إبعاد الأسرة الحاكمة، وكانت محاولته هذه تكلل بالنجاح في بعض الأحيان.

وفي حالة الشعب الذي أسَّس ممالك أكاد في جنوب بابل فليس هناك شكٌ كبيرٌ في أمره، فقد جاء من مكان آخر، وتمكَّن بمرور الوقت من السيطرة على بابل وعيلام المجاورة لها، ثم مدَّ فتوحاته إلى البحر الأبيض وآسيا الصغرى. ويعتبر ملكها الأعظم سارجون (2550 ق.م)، وذريته من بعده، أول جماعة مقاتلة حاكمة عرفها التاريخ.

وابتداء من هذا الوقت قُدِّر للحضارات الكبرى فى بلاد الشرق القديم أن تتعرض لغزوات مقاتلة تفد من وراء حدودهم، ونذكر من هذه الجماعات المحاربة "**الكاسين**" اللذين جاءوا من سنة 1760 إلى 1100 ق.م. وكانوا أسلاف الجماعة الكبرى من الأرستقراطيات المحاربة التى تتكلم اللغة الآرية، وقد احتلت أعمالها صفحات التاريخ خلال قرون كثيرة. ومن الغزوات الهامة الأخرى للشعوب المحاربة غزوة **الهكسوس** الذين احتلوا مصر سنة 1680 ق.م تقريباً، ثم طردوا من البلاد سنة 1580 ق.م، وإلى **الكاسين** و**الهكسوس** يرجع الفضل فى استخدام الحمار هذا العهد دابة للحمل لا مطية، كما أن العربات لم تكن معروفة لديهم. وقد تعلَّم المصريون من **الهكسوس** القتال، وأصبحوا بعد رحيلهم أكثر دراية بفنون الحرب.

وأهم الشعوب الأوربية – ابتداء من منتصف الألف الثانية قبل الميلاد (1500 ق.م) – هي الشعوب الناطقة باللغة الآرية مثل: **الدوريين** و**الكلت** و**التيوتون**، تلك الشعوب المحاربة التي ظلت قروناً تهدد سلم الحضارات الكبرى فى حوض البحر المتوسط، والتي استطاعت في حالات كثيرة أن تدمر حضارات شرق البحر المتوسط، فغزو **الهكسوس** لمصر مثلاً كان له صدى في كريت، إذ بدأت حضارتها تضمحل في ذلك الوقت تقريباً. وما بدأه **الهكسوس** أتمه **الدوريون** الذين اندفعت أسرابهم من الشمال إلى بلاد اليونان وأهلكوا الآخضر واليابس من حضارة كريت الرائعة.

أما الحركة الكبرى للشعوب الناطقه باللغه الآرية في أوربا، ففي الإمكان إرجاع تاريخها إلى زمنٍ ما في العصر البرونزي حول بدء ألف السنة الأولى قبل الميلاد، وأهم شعب من هذه المجموعة القديمة من الشعوب هو الجماعة الناطقة باللغة الكلتية، وأول مكان سُمِعت أخبارهم فيه هو وسط أوروبا حيث تمكنوا من التوسع والانتشار، وما إن جاء القرن الخامس قبل الميلاد حتى وطدوا سلطانهم على كل هذه الرقعة، وفي القرن الرابع قبل الميلاد أصبحوا خطراً يهدد بلاد البحر المتوسط ثم غزوا

أسبانيا، ولا شك أنه كان في مقدورهم أن يعيدوا مغامرات أسلافهم في البحر المتوسط نفسه، لولا أن الرومان وقفوا في وجههم.

و**الرومان** شعب يتكلم الآرية، وكان قد اكتسب قدراً كبيراً من ثقافة البحر المتوسط من **الاتروريين** و**الإغريق** و**القرطاجنيين**. غير أن **الرومان** أنفسهم كان مصيرهم الوقوع في براثن جماعة أخرى من الشعوب الآرية هم **التيوتون** الذين خرجوا من اسكندينافيا ودانت لهم أوروبا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية، وكادوا يسحقون حضارة البحر المتوسط.

ومن الواضح أن هذه الحركة تختلف كل الاختلاف عن الحركة الأولى التى أقامت فيما مضى مجتمعات متحضرة في المناطق النائية من الأرض. كانت تلك الحركة الأولى منبعثة من مركز متوسط ومتجهة نحو الخارج، لأن أقدم تاريخ عرفناه للحضارة كان في بلاد الشرق القديم وكان أصحاب الحضارة البائدة يوسعون دائرة تحركهم نحو الخارج حتى شملت حركتهم أكثر جهات العالم تقريباً. أما الحركة التى نتناولها فهى من نوع مختلف لأنها تتجه أساساً صوب الداخل، فالأرستقراطيات العسكرية المحاربة من: **الهكسوس**، **الساميين**، **الدوريين**، **الآكيين**، **الكلت**، و**التيوتون**، وغيرها، جاءت كلها من الحدود الخارجية للحضارة واتجهت

نحو الداخل. الأمر الذي يتضح منه أن كل هذه الجماعات كان همها السطو على حضارات قائمة من قبل.

وما إن ظهرت هذه الجماعات على مسرح الوجود حتى بدأ عصر الحروب الحقيقية. وبعد أن كان العالم منصرفاً إلى فنون السلم، لا يكاد يشغله أي نوعٍ من القتال أصبح الآن ميداناً لنضال مستمر أودى بكثيرٍ من الحضارات العظيمة إلى الدمار والاضمحلال.

ومن الممكن أن يقال إن مثل هذه الشعوب المقاتلة كانت قائمة منذ أن كانت هناك حضارة ما، وقد يبدو هذا القول سليماً، لأن هذه الشعوب ظهرت أول ما ظهرت في بلاد الشرق القديم سنة 2550 ق. م. عندما تأسست أسرة **سارجون** ملك **أكاد**. فإذا كانت شعوبٌ محاربةٌ من هذا النوع قد جالت في بلاد العرب والأقاليم المجاورة في تلك الأيام، فلماذا نستبعد وجود غيرهم في أماكن أخرى؟ ولماذا نستبعد حدوث تطوُّرٍ ثقافي من نوع مختلف عن ثقافة الشرق القديم في مكان آخر، نتيجة قيام الجماعات المحاربة التي عرفها العالم؟

وفإذا حددنا كيفية نشأة هذه الشعوب المحاربة، ربما استطعنا فهم ثقافة الحرب على نحو أفضل. ولا بد أن نقرر أن الحرب لم تكن معاصرة

لقيام الحضارة، بل إنها اتخذت مظهرها العنيف في مرحلة متأخرة من التقدم البشرى، فهى إلى حد ما نتيجة من نتائج التطور الاجتماعى.

وكخطوة أولى نحو حل مشكلة هذه الأرستقراطيات العسكرية المقاتلة، نذكر أن الظاهرة التي أشرنا إليها في إيجاز فيما يختص بأوروبا وشرق البحر المتوسط، هي في الحقيقة حدث شمل العالم كله. فكل الحضارات العظمى تداعت أركانها في نهاية الأمر نتيجة غزوات شنتها عليها أقوام مقاتلة من وراء الحدود. ولسنا ندري من أين جاء **الهكسوس** و**الكاسيون**، وغيرهم، ولكننا نعلم الكثير عن الشعوب التي جاءت بعدهم مما نستطيع أن نسترشد به في محاولة استقصاء الماضي. ولسوف نجد بالإضافة إلى ذلك أن مسلك هذه الارستقراطيات المحاربة هو مسلك واحد في العالم كله حيث إن ما فعلته شعوب التتار والقبائل الذين اندفعوا إلى قلب أوروبا كقبائل الهون والآفار وغيرها يطابق ما فعلته شعوب **التيوتون** أو قبائل **البانتو** الأفريقية، فالكتاب واحد تغيرت فصوله. وهذه الظاهرة المشتركة بين تلك الشعوب تمكِّننا في يُسر من أن نرسم صورة كاملة لنشاطها في كل أنحاء العالم.

من ملامح صورة المحارب قديماً:

بطبيعة الحال، فإن الحرب كما ساهمت في بناء دول وحضارات فقد صنعت جنودها وطقوسها، ومع ظهور الأرستقراطيات العسكرية الحاكمة بدأ الجندي يتحول إلى "**نجم**" مجتمع وصورة براقة لرجل الطبقة الحاكمة أو على الأقل "**ظلها**"!

ومن ثم تعامَل الإنسان مع فكرة الصراع والحرب تعاملاً ينطوي على تبجيل، فكانت له طقوسه قبل الحرب أثناءها وبعدها. وعلى مر التاريخ حاول الإنسان التعبير عن الحروب والتعامل معها، حتى قبل أن يعرف الكلمة المكتوبة. وهو ما تجلَّى فى فنون الكلمة من أساطير وملاحم التشكيل وفنون الحركة من رقص وإيماء، وكذلك فنون الموسيقى والإيقاع. وما زالت جدران الكهف الشهير "**التاميرا**" باستراليا تحفظ لنا أول ما سجله الانسان بريشته: ذلك الثور المقوس الظهر والبطن .. أقوى ثور رسمه الإنسان حتى الآن.

كما كانت منحوتات الآشوريين لأسود قوية بمرحلة أكثر تقدُّماً. وقد حلت مصارعة الثيران محل مصارعة الأسود في مرحلة متقدمة وإلى الآن، إلا أن قبائل "**ماساي**" الأفريقية تجعل قتل الأسد احتفالية لها طقوسها المتميزة، مثلما أصبح "**الماتادور**" في أسبانيا الآن، رمزاً لكل البشر، يذكرهم بأجدادهم أيام مصارعة الأسود وحروبه الصغيرة.

وفي التراث الشعبي لأمم الحضارات القديمة، تجنح المثولوجيا الهندية "**البراهما**" الى مزاج حربي حاد، حيث يمجد الحرب ويزكي الصراع من أجل انتصار الانسان والحياة في نهاية الامر. أما الميثولوجيا الصينية فتجنح فى معظمها إلى إذكاء السلم، ربما، بتأثير التعاليم البوذية المضادة لمفهوم الحرب. كان "**كونفوشيوس**" يقول: "**الجنرال العظيم حقاً هو الذي يكره الغزو وليس حقوداً انفعالياً**".

وجرت العادة في معظم الحضارات المعروفة على توافر بعض الطقوس المشتركة، كأن يتم تقديم القرابين الكثيرة قبل المعارك وبعدها، والمدهش أن بعض القبائل والأمم القديمة تقدم القرابين من الأسرى وجزءًا من الأسلاب التي يحصلون عليها، وغالباً يتم ذلك وسط فرحة وتهليل أفراد الشعب داخل المعابد أو خارجها، وفى حضور رجال الدين والقادة.

في دراسة انثربولوجية لقبيلة "**شاكو**" الهندية بقلب أمريكا الجنوبية، رصد العلماء ما يمكن أن نعتبره جملة من الطقوس التى يتبعها طرف ما قبل المعارك وأثناءها وبعدها في العديد من المناطق بالعالم القديم. قبل الهجوم، ترسل القبائل بعض الشباب لجمع المعلومات ودراسة نقاط الضعف والقوة عند القبيلة الآخرى. وهو ما يمكن أن نطلق عليه الآن "**فنون الاستطلاع الحربي**". ثم يتم اتخاذ قرار الحرب وتحدد الخطة حيث يقسم الشباب إلى مجموعات صغيرة بقيادة أحدهم. وتبدأ عملية الإخفاء والتمويه. وليلة اليوم الأول لبداية الحرب يمضونها في الرقص والغناء والموسيقى الحماسية على آلاتهم الإيقاعية، وأهم ما يهتمون به دهان أجسادهم ووجوههم باللون الأحمر (لون الدم)، ولا تبخل السيدات بجهدها في طهي أشهى الأطعمة، وتقديم الشراب وكأنها ليلة عرس!

ولاحظ العلماء أن الرايات تلعب دوراً هاماً فى المعارك، وأن اللون الأبيض هو لون الانتصار. وتلك القبائل لا تعرف فكرة الاحتلال ويكتفون بالغنائم وجمع الأسرى حيث يكلفون بانجاز الاعمال الشاقة فيما بعد. ولعل توزيع الغنائم من أكثر الطقوس شيوعاً في الحروب

القديمة. وبينما عرفت بعض القبائل والحضارات القديمة أن معيار تقسيم الغنائم على المحاربين هو عدد الأسرى أو عدد الأيدى المقطوعة من الأعداء!

عملت بعض الأمم الآخرى الأكثر رقياً على الاستفادة من هؤلاء الأسرى كقوة اقتصادية.

الحرب والسلام في الحقبة اليونانية الرومانية:

ما من شك فى أن التاريخ اليوناني/ الروماني يحتل مكانة متميزة فى دراسة التاريخ الإنساني، وبخاصة فيما يتصل بتطور الفكر السياسي والاجتماعي، ومن ينكر مثلاً إسهام فلاسفة الإغريق من أمثال أرسطو صاحب كتاب "**السياسة**"، وأفلاطون صاحب "**المدينة الفاضلة**" في محاولة معالجة أزمة مشكلة الحكم؟ وأى كتاب فى علم السياسة والاجتماع يبدأ بالفكر اليوناني والروماني، فالرومان هم فقهاء العالم الأول وموجدو "**القانون الدولي**" الذي إليه تحتكم الدول فى صراعاتها السياسية؟

وقد كانت "**الحرب**" شيئاً هاماً بالنسبة للدويلات الإغريقية كما كانت عماد الامبراطورية الرومانية حتى فى أزهى عصور السلام الروماني، ولم تكن الحرب سواء بين الدويلات اليونانية أو في الامبراطورية الرومانية أمراً مجرداً بل ظاهرة ذات جذور ممتدة في كل جوانب المجتمع القديم بأسره، وهذا يعطينا معلومات قيمة عن هذه الظاهرة الهامة.

وحسب الفيلسوف البريطاني برتراند راسل، فإن المشكلة الرئيسة فى العالم القديم لا تزال هي نفسها المشكلة فى العالم الحديث والمعاصر، وهي مشكلة الحرب والسلام ومسئولية السياسين والحكومات فى الحفاظ على السلم ومنع نشوب الحرب، كما أن إميل روستوفتزف – أحد أعمدة التاريخ اليوناني الروماني – يرى أن أحداً لا يستطيع أن يتفهم التاريخ المعاصر ما لم تكن لديه فكرة واضحة عن تطور نظم الحكم فى العالم القديم، كذلك يرى آخرون أن هناك ثمة علاقة بين أفول كل حضارة وبزوغ حضارة وريثة لها، فى منطقة أخرى من العالم، وإذا صح هذا الرأي فإنه دليل قوى على وجود فكرة الإحساس بالمجتمع الدولي ودليل على قيام علاقات دولية.

وفي الحقب القديمة من التاريخ، اتسمت العلاقات الدولية بالعداء السافر لكن أول معاهدة في التاريخ بين دولتين كانت معاهدة سلام، ففي عام 1978 قبل الميلاد، وبعد أن انتصر رمسيس الثاني على ملك الحيثيين طلب الحيثيون عقد معاهدة سلام، وقد نقشت على لوح من الفضة وفيها: "**مشروع مقدم من ملك الحيثيين خيتار ابن ماسار قائد الحيثيين العظيم القوي على لوحة إعلان من الفضة أن أوسر ماعت رع أمير مصر العظيم مشروعا للسلام والأخوة الأبدية من البدء إلى النهاية أبدياً، حتى الاتفاقية بين أمير مصر العظيم ابن من بختي رع وقائد الحيثيين: ألا فليأذن الله ألا تحدث عداوة بينهما طبقاً لهذا المشروع**".

ورغم مثل هذه السوابق التاريخية، فإن فلاسفة التاريخ فشلوا فى الاتفاق على رأي واحد بخصوص الاتجاه الذي تسير فيه أحداث التاريخ، ففريق يرى أن التاريخ يسير في اطراد تقدمي، بينما يتمسك آخرون برأى قديم: أن الأحداث تعود إلى الوراء إلى النقاط التى بدأت منها، وفريق ثالث لا يرى هذا ولا ذاك، فالتاريخ يسير في خط حلزوني أى يجمع بين تكرار الحوادث والخط التقدمي، ولكن كلا من هذه الآراء يقوم على

وجهة نظر لها ما يؤيدها، ولا يوجد رأي تتمثل فيه كل الحقيقة، ولهذا فإن المشكلة متروكة برمتها لكل صاحب طاقة فى العلوم الإنسانية، وكل مجتهد في علم التاريخ.

وأقرب الآراء التى عبرت عن حقائق تاريخية قول فشر عن أحداث التاريخ بأنه "**لا يرى سوى أزمة تتبع أزمة كموجة تلاحق أخرى**" وإن أحداث التاريخ تؤكد قول فشر، ولو تتبعنا الأحداث التاريخية بالبحث والتحليل لوجدنا أن الحرب وراء كل حدث، وهي نتيجة لحدث سابق، ومسببة لحدث لاحق، حتى الأحداث التاريخية التى لم تنتج من حروب ليست فى الواقع سوى نتائج بعيدة المدى لحروب قديمة، لأن الحرب مستمرة ومتعددة والنتائج التاريخية متعلقة بها ومسببة عنها.

وإن من يقسم التاريخ اليوناني الروماني إلى فترات، ليجد أن الحروب سادت في ثلاثة عشر قرناً بينما ساد السلام في قرنين فقط، وللحروب عادة أسباب سياسية واجتماعية ضاربة العمق فى المجتمعات، وعلى أى حال: لننظر لما قال أحد المتخصصين فى تاريخ الشرق القديم وهو ج.ب جرندى: "**حروب ... حروب ... حروب. ولا شئ غير الحروب ... بعضها محدود وبعضها متسع..**" أما بالنسبة للتاريخ

اليونانى الرومانى فقد قال تزمرن: "**لقد كانت الحرب فى الولايات اليونانية جزءًا طبيعياً من حياتها كالرياضة واللهو بالنسبة لنا**"، وقد تعاطف تزمرن مع اليونانيين القدماء، وحاول التخفيف من كلمة حرب بل إيجاد عذر للحروب القديمة كما يقول هو: "**إن الحرب لم تكن ببساطة سوى طريقة عادية لقضاء بعض الوقت فى معسكر فى الربيع المبكر**"، لكننا نعلم أن للحروب اليونانية نتائج مروعة خلفت البؤس والفقر والتفكك السياسي.

ويبدو أن المؤرخين الأوربيين عندما نظروا إلى الحرب القديمة هذه النظرة البسيطة كانوا تحت تأثير "**حروب العصور الوسطى**" التى كانت تدور فى شكل مهذب، وقد رفض أرنولد توينبي رأياً قديماً لباكون قال فيه: "**إن الحروب الخارجية مثل عملية التسخين التي تجعل الجسم مستعداً للرياضة**"، ووصف هذا الرأى بأنه أكثر الآراء سفسطة وتزويراً للتاريخ.

إن حروب القرن الثامن عشر ليست إلا ومضة خاطفة، وبخاصة بعد أن اخترعت الأسلحة وتطورت صناعتها لتكون أكثر مقدرة على القتل والدمار، يقول جيتل: "**لقد قامت حروب ضارية جعلت**

المنهزمين وممتلكاتهم تحت رحمة المنتصرين، حتى الديانة في هذه العصور كانت تبحث عن استئصال أو استبعاد الشعوب المهزومة، وحتى أجساد القتلى كان يحلو للمنتصرين تشويهها، أما الأسرى فقد كان يروق للمنتصرين تعريضهم لأسوأ أنواع التعذيب، وكثيراً ما سجل المنتصرون أخبارهم فخورين ومتباهين بالفظائع التى أنزلوها بأعدائهم". إن هذا واضح فى التاريخ اليوناني الروماني، ونحن نعلم البربرية التى كانت تتسم بها الحروب الرومانية، أما الإغريق فعلى حد تعبير فريمان "**كانوا يتحاربون وكأنهم أعداء شخصيين**".

وإذا كانت تلك هي النتائج المباشرة فناهيك عن النتائج غير المباشرة من: تفكك سياسي، وانحلال اجتماعي، وبؤس اقتصادي، لقد كانت الحرب بالنسبة للدويلة اليونانية الصغيرة دماراً شاملاً لها، وكان شبح الحرب دائما يهدد "**الحضارة اليونانية**"، والحق يقال أن المفكرين الإغريق قد أحسوا بهذا الخطر وبكوا تباكوا على دمار الحرب، وبخاصة مفكرو أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد، حيث بلغ الفكر والحضارة اليونانية قمتهما، لقد أدان كتاب المسرح الإغريقي الحرب وبخاصة شعراء التراجيديا اليونانية حيث يقول الشاعر المأسوى ايسخولوس – ذلك

التقى الورع – "**إن الحرب كالرجل المعتوه الذى يحاول أن يسخر من خلق الرب**"، وفاق الشاعر المأسوى الثائر المتمرد يوريبيديس سلفه ايسخولوس استنكاراً للحرب حيث نقل إلى المسرح دمار الحرب وخرابها، وقد فعل ذلك بعقلية المثقف الذى يمثل نهاية عصر عظيم.

ولم يكن مؤرخو أثنيا فى هذا العصر أقل إحساساً بخطر الحرب ولا أقل إدراكاً لمشاكلها، فقد خصص هيرودوت دراسة عن الحرب الفارسية اليونانية، وهو عندما يتحدث عنها، يتحدث بجدية وأسى أبعد مما عرف عنه من رومانسية وخيال، فيقول هيرودوت: "**لقد حلَّ ببلاد اليونان خلال الأجيال الثلاثة من عهود دارا وكسيركسيس وارتاكسركيس مصائب أكثر مما حل بها خلال العشرين جيلاً التى سبقت دارا – كان بعض المصائب مسبباً عن الفرس، والبعض الآخر مسبباً عن الصراع بين قادة اليونان حول السلطة العليا**".

والحق يقال أن أكثر التحليلات عمقاً للحروب اليونانية يجئ بين سطور كتابات المؤرخ العلمي ثوكوديديس مؤرخ الحروب البيلوبونيزية التى اشتغلت رحاها بين أثينا وأسبرطة، وانتهى القرن الخامس قبل الميلاد بمصائبها وأهوالها، وقد وصف كوكرين تعليقه بأنه من أشد الإدانات

والاستنكارات للحرب إذ يقول ثوكوديديس عن الحرب: "**إنها همٌ لا يزول وغمٌ لا نهاية له**".

ومن يقرأ النصوص اللاتينية في كتب قيصر وما رواه المؤرخ تيتوس ليفيوس ليجد أن التاريخ كله يدور حول الحروب والمعارك، ويعتقد بعض المفكرين أن تَعاقُب الحرب والسلام ظاهرة لا يمكن إنكارها، بل يذهب بعضهم إلى أن تعاقُب الحرب والسلام أمر محتم كتعاقب الليل والنهار، وهنا يجب أن نتوقف: فمثل هذا التشبيه تشبيه مغالط فنحن لا نستطيع أن نوقف تعاقب الليل والنهار، ولا نستطيع أن نجد له علة إنسانية أي ليس للإنسان طرف فيها، ولكن ظاهرة الحرب والسلام ظاهرة تقوم أساساً على قرارات يتخذها الإنسان بنفسه ويحسمها بنفسه، فوحدة "**الليل والنهار**" طبيعية، أما وحدة "**الحرب والسلام**" فإنسانية.

كما أننا لا نستطيع أن نأخذ برأي متشائم مثل رأى كريتون القائل بأننا: "**لن نستطيع أن نتخلص من الحرب**"، صحيح أن دارس التاريخ اليوناني الروماني لا ينكر أهمية مكانة الحرب فى حوليات التاريخ، وأن الحرب تنبعث من بعضها البعض وتتابع فى سلسلة من الأحداث التاريخية، لكن من الأفضل للمؤرخ أن يركز على عامل أكثر شمولاً من

ظاهرة الحرب، ألا وهو "**السياسة**"، فالحكومات هي التي تعلن وتوجِّه وتُنهي الحرب. وقد حدد فيلسوف العصر برتراند راسل مهمة الحكومات والأساسية بأنها: "**إدارة الحروب وتحقيق السلام**"، عندئذ يحق لنا أن نعتبر التاريخ العسكري جزءًا لا يتجزأ من التاريخ السياسي، وإذا قلنا إن الحرب جوهر التاريخ، لجاز لنا أن نقول إن الحرب جوهر "**التاريخ السياسي**".

فمشكلة السياسة هي كيف يتحقق السلام، فإعلان الحرب من جانب الدولة يتأتى بعد دراسة وتفهُّم وتقدير للعوامل التي تسير بالأحوال السياسية من الحرب إلى السلام، وبالنسبة للتاريخ اليوناني الروماني يجب أن نرفض مجهودات هؤلاء الذين يحاولون أن يقدموا لنا التاريخ اليوناني الروماني على أنه سلسلة معارك ولا شئ غير ذلك، بدون تحليل أو تفسير، لأن الواجب علينا أن نحلل كيف ولماذا حدثت الحروب فى العالم القديم، ونبحث عما إذا كانت هناك عوامل بعيدة تؤثر فى سير الحروب، وعما إذا كانت هناك قوانين اجتماعية أو بشرية تتحكم فى الحرب أو تسبب فى حدوثها، وعما إذا كانت هناك فرص لتفادي هذه الحروب الدامية.

ولا يستطيع المؤرخ أن يكون صادقاً مع الحقيقة لو نادى بالسلام المطلق الأبدي والعزوف عن الحرب أيا كانت صورتها، لأن ذلك لا يتماشى مع منطق التاريخ، فلو اعتدى معتدٍ أو هدد بالاعتداء على ممتلكات المواطنين فإنه لمن الواجب أن يهب المواطنون للدفاع عن ممتلكاتهم لأن الاعتداء على الوطن، الذى هو "**الوحدة السياسية**" الكبرى للمواطنين، هو فى الحقيقة اعتداء على ممتلكات ومصالح أفراد المجتمع، فالحرب هي العلاج الأخير الذى لا يستخدم إلا فى الحالات التي لا علاج فيها، والسلام لا يمكن أن يكون فعلياً وفعالاً إلا إذا التزمت به الأمم كافة، فالحرب دفاعاً عن النفس حقيقة مشروعة.

وفى حالات كثيرة من التاريخ القديم، وبخاصة التاريخ الرومانى، نجد "**عاطفة المجد**" أو بناء الدولة العظمى أو الامبراطورية هي الإحساس العاطفي الذي يسود في المجتمع، ويبرز ذلك في كتابات المؤرخين الذين كتبوا عن هذه لحرب والدفاع عن "**عظمة الوطن**"، وهذا يضلل المؤرخ ويجعله لا يعرف كيف يتبين ما إذا كانت هذه الحرب "**عدوانية**" أو "**دفاعية**". ومن دراستنا للحروب القديمة نجد أنه من النادر أن قامت حرب بسبب "**الدفاع**" أو ما يسمى بـ: "**الحرب المانعة**"،

بينما هناك حروب لفكرة أخلاقية، فمثلاً، نجد المؤرخ لاست يبحث عن عذر أخلاقي للتوسع الروماني، وهو العذر نفسه الذى قدمه جيبون، وهو أن "**الأمم الهمجية فى هذا العالم هي العدو الأكبر للمجتمع المتحضر**".

كما أن أرنولد توينبي يقبل الحرب التي تعلن من أجل هدف أخلاقي أو من أجل العدل الاجتماعي ويعتبرها حرباً مشروعة، لكن مثل هذه التشريعات صعبة التطبيق بالنسبة للحروب في العالم القديم، وإذا كانت كتب التاريخ تحفل بالمعتدين وما أنزلوه وسببوه من دمار وآلام للإنسانية، فإنها كثيراً ما تقلِّل من قدر ما نال وما نزل بهؤلاء المعتدين من عقاب وجزاء، إن ظاهرة الحرب العدوانية عامة في التاريخ.

كما أن الحرب أمر لا تُعرَف عواقبه، فالذي يذهب ليدمر غيره، كثيراً ما ينتهي به الأمر بتدمير نفسه، ويسجل لنا المؤرخ ثوكوديديس قول أحد السياسيين الإغريق في جدل عن الحرب: "**يجب أن تقدر أحداث الحرب قبل أن تشعلها. فعندما يتقدم سيرها تصبح عملاً متوقفاً على الفرص والحظ**"، لأن الحرب في طبيعتها دون سائر الأشياء لا تسير طبقا لقواعد محددة ... فهي تقوم على القدرة على مواجهة أمر

طارئ ... فهي تجبر الرجال أن يفعلوا أشياء لم تكن فى الحسبان أو كانوا لا يرغبون فى فعلها ... كما أنها تميل إلى إحداث نتائج ليس للمنطق فيها نصيب، وينطبق ذلك تماماً على الحروب التي كانت تقوم بين المدن اليونانية، وهي حروب دمرت الكثير من جوانب الحضارة اليونانية ذاتها، وهي في وصف جرندي "**صراع انتحاري**" ناتج من الطيش وعدم النضوج الفكري والسياسي.

الفصل الثاني:

روافد ثقافة الحرب قديما

في سبيل بناء "**السلام**" تكون هناك حاجة ملحة لإخضاع الحرب للتحليل كظاهرة "**مرضية**"، ففي العالم القديم كانت ترجع أسباب قيام الحروب في العالم القديم إلى عوامل، في مقدمتها اضطراب النظام السياسي والفوضى التي كانت تعم العالم نتيجة غياب قانون دولي ينظم سلوك الدول تجاه بعضها البعض، كما ترجع أيضاً إلى الفوضى السياسية التي كانت تسود دويلة المدينة في العالم القديم، وبخاصة رغبة بعض هذه الدول في التوسع واستيعاب المدن الصغرى المجاورة لها، وربما كانت المشكلة في العالم القديم أكثر تعقيداً من العالم الحديث.

ومن الغريب – رغم تقدُّم العلوم الإنسانية عند الإغريق – أنهم لم يكونوا على وعيٍ كامل بمفهوم "**الدولة السياسية**"، فعند أفلاطون

وأرسطو كانت الدولة هي "**المجتمع**"، وعندما قال أرسطو إن الإنسان حيوان اجتماعي بطبعه كان يعني أن الإنسان حيوان سياسي بطبعه، وأنه بدون "**المجتمع**" لا يعني شيئاً، وثمة شئ آخر هو أن الإغريق وضعوا ولاءهم لواجباتهم السياسية فوق أي أخلاقيات، ولهذا انهمكوا في حروب كثيرة، أما عند الرومان فقد تطوَّر الفكر السياسي وعرف الرومان معنى الدولة السياسية، وذلك نتيجة تطور علم التشريع والقانون حيث تحولت: "**عبادة المجتمع**" إلى نظرية سياسية هي "**عبادة الدولة**".

وقد كانت بلاد اليونان مكتظة بالعديد من دويلات المدن المتجاورة، وكان أقل احتكاك بينها يؤدى إلى اندلا ع الحرب، وكان سبب الخلاف دائماً النزاع على الحدود، ما يؤدى إلى إشعال حروب كبرى، وأحياناً نجد هذه المدن الإغريقية المتصارعة تستدعى "**قوة أجنبية**"، لتحالفها ضد مدينة إغريقية أخرى، فمثلاً: استدعت بعض مدن صقلية الإغريقية قرطاجة لأن الدبلوماسية الإغريقية كانت دائماً هي الحرب.

وكان غياب التفاهم والتعاون بين الدويلات اليونانية من أسباب الحروب، وكان تعادُلُها فى القوة العسكرية يحول دون وضع نهاية قاطعة لتلك الحروب، وكانت الحرب بالنسبة لدويلة صغيرة شيئاً باهظ الثمن،

وبخاصة لأنها دويلات محدودة القوى البشرية والاقتصادية. وعلى حد تعبير دلبرت مورى: "**كانت الدويلة القديمة آلة حرب**" لكن "**لا تعمل، فمعظم الحروب اليونانية الداخلية لم تكن حاسمة، من ثم فإنها كانت تعود وتندلع ثانية**"، فالغيرة العمياء على حماية الاستقلال وعدم الرغبة في الاندماج السياسي مع الدويلات الأخرى، كان نقطة الضعف في التاريخ السياسي اليوناني.

وعندما نقرأ روائع الأدب اليوناني أو نشاهد بدائع فنه أو نتذوق أفكاره السياسية يجب ألا نقارن هذه الروائع بالسياسة اليونانية. فقد كانت السياسية الإغريقية بربرية أميل إلى العنف، خالية من كل المبادئ والأخلاق. وهذا يبين التناقض بين الواجهة الحضارية والواجهة السياسية، لقد كانت السياسة – والسياسة الخارجية بالذات – نقطة الضعف في ديمقراطية دويلات المدن، ولا يوجد كاتب إغريقي واحد (سوى أيسوقراط في القرن الرابع) اهتم بالسياسة الخارجية وفكر ونادى بوجوب قيام وحدة بين المدن اليونانية. لأن الكتَّاب تمسكوا بالاستقلال والاكتفاء الذاتي.

ونلاحظ ذلك حتى عند المفكرين السياسيين أنفسهم فأرسطو مثلاً، الذي عاش في القرن الرابع، ركز همه كله على السياسة الداخلية،

لأنه تمسَّك بشدة بعنصر الاكتفاء الذاتي، وأن على دولة المدينة أن تعتمد على نفسها، دون افتراض التعاون أو حسن النية من جانب المدن الأخرى، وتبع أرسطو معلمه أفلاطون فى افتراض أن الإغريق لا يستطيعون العيش بدون أي نظام سوى نظام دويلات المدن، وتغاضى أرسطو عن حقيقة أن نظام المدن المستقلة لم ينجح، فهو لا يناقش ضعف النظام، بل يفترض فيه الكمال.

غير أن وجود الامبراطورية الشاسعة لا يختلف عن وجود المدن المستقلة المتصارعة فيما يختص بحظر قيام الحرب، لأننا نجد الامبراطوريات تسعى في بعض الأحيان إلى المبادئ نفسها التي تسعى إليها المدن المستقلة، وهي: الاكتفاء الذاتي والاستقلال، وبالنسبة للمدن اليونانية الصغيرة فوجودها على الحالة نفسها التي عليها من تحفُّظ واستقلال وعدم الرغبة فى التعاون سبب قيام الحروب الكثيرة بينها، ولم تحاول أية مدينة التنازل عن أي شرطٍ من الشروط السابقة (الحرية والسيادة والاكتفاء الذاتي).

ومن ثمَّ، فقد اندلعت الحروب واتسعت رحاها، كما في حالة الحرب البيلوبونيزية، وأدت إلى سقوط دويلات وإلى فشل الحضارة

اليونانية في فرض نفسها كقوة سياسية. وهذا يفسره كلمة "**الفوضى**" الشاملة التى سادت بين المدن اليونانية.

ولا تعتبر التحالفات المؤقتة التى قامت بين المدن اليونانية حلولاً لهذه المشكلة، لأنها كانت تحالفات عسكرية قامت لسبب واحد وانتهت بزوال هذا السبب، وكذلك لا تعتبر بعض التحالفات السياسية عنصراً من عناصر الوحدة، لأن مثل هذه الاتحادات كانت تقوم بين مدن متنافسة متساوية في الحقوق، ومن ثم لم تتنازل إحداهما عن أي حق سياسي من أجل قيام الوحدة الفعلية، بل كان أشبه باتحاد الشركاء الذي سرعان ما يتفكَّك عندما ينشأ أول خلاف.

وعلى أي حالٍ، كانت هناك محاولات من جانب الإغريق للقضاء على التنافر السياسي بين المدن اليونانية، تتمثل في التقدم الكبير الذى شهده العالم اليوناني الروماني في علم القوانين والتشريع، ثم في محاولات إقامة اتحادات سياسية بين المدن اليونانية. كان الإغريق أول من ربطوا بين القوانين وعلم الأخلاق، فالديموقراطية عند الإغريق هي عدالة القوانين. وقد سبق للشاعر الفيلسوف هسيودوس أن أشار إلى عناصر ثلاثة تتحكم في عمل الإنسان هي: العدل، والسلام والتشريع السليم.

وقد أدى تقدُّم علم التشريع والقانون إلى قيام نوعٍ من الوئام الدولي، قللَّ من خطورة الفوضى كما قللَّ من خطر اندلاع الحرب، وظهرت نواة القانون الدولي في العصر اليوناني الروماني كرد فعل لفض المنازعات بين الدويلات أو لتسهيل وضع شروط المعاهدات التجارية. وأبرز القانون الروماني أمراً هاماً هو اعترافه بأن الحرب يجب ألا تقوم إلا لسبب عادل، ويرجع الفضل في ذلك إلى مجهودات الفلاسفة الإغريق في بلورة نظرية: "**قانون الطبيعة**" أو "**القانون الطبيعي**".

ثم نجد روما تعتبر – فيما بعد – بحقوق للمواطنين الرومان وللإيطاليين على السواء وهو ما سمته: "**حق البشر**" أو "**حق الجنس البشري**". واستفادت روما كثيراً من انتشار التفاهم على مستوى أكبر، ومن الاعتراف بأن للإنسان بعض الحقوق التي لا جدال فيها، فوضعت نظاماً تشريعياً. وبصرف النظر عن التقدم في علم التشريع والتقنين على أساس إنساني، فقد مر التاريخ اليوناني الروماني بتجربة سياسية قلما يشار إليها هي: تبادل حقوق الجنسية بين مدينة وأخرى أو بين أكثر من مدينتين، إذ أصبح من حق كل فرد التمتع بأكثر من جنسية، ما ساعد على الخروج من دائرة التعصب للدويلة إلى دائرة أكبر والتمتع بحقوق على

مستوى أكبر من المدينة الدويلة، وأحياناً نجد أمثلة حيث منحت دويلة حقوق المواطنة فيها لدويلة أخرى بكامل سكانها، كان ذلك تمهيداً للقضاء على الخلافات التي سببت اندلاع الحروب، وبداية لتكوين حلف يجمع بين أكثر من مدينة واحدة على أساس تشريعي ثابت، وهذا أيضاً لتجنُّب اندلاع الحروب.

لقد عالج فريمان في بحث قيِّم فكرة قيام الأحلاف أو الاتحادات الفيدرالية عند الإغريق، وذلك بعد منتصف القرن التاسع عشر بقليل، وقد ركز فريمان على قيام **الاتحاد الآخي** و**الاتحاد الأيولي** في القرن الثالث قبل الميلاد، واعتبر الفيلسوف الفرنسي مونتيسيكيو **حلف ليكيا** المثل الأسمى للاتحاد، إذ أشار إلى أن مندوبي الحلف كانوا الممثلين الحقيقيين للعناصر السكانية التي تكوَّن منها الاتحاد، ويمكن أن يجادل بعضهم بأن أهل ليكيا لم يعتبروا إغريقاً حتى في الوقت الذي كان فيه حلفهم في قمة اكتماله، لكن في مثل هذا العصر — العصر الهللينستي — لم يعد الجنس هو الذي يحدد الهللينية بل الثقافة، فمثلاً كان المقدونيون أساساً غير إغريق، لكنهم أصبحوا فيما بعد إغريقاً عن طريق الثقافة والحضارة. ويعد دور الثقافة في التقريب بين الشعوب والحضارات دوراً

مهماً فهو تأكيد لحقيقة أن الصراع والوفاق إرادة واختيار، بقدر ما هو نتاج عوامل واقعية، وأن السلام والحرب يمكن أن يكونا بديلين متعادلين يرجح كفة أحدهما الاختيار المقصود وليس أي منها قدراً.

وكل هذه العوامل — من تقدُّم فن التشريع والتقنين على مستوى أكبر من الدويلة والاتجاه نحو إقامة اتحادات فيدرالية بين المدن الإغريقية ومحاولات تلك الاتحادات تبادل الجنسيات السياسية، ساعدت الامبراطورية الرومانية، لاحقاً، في تحقيق نظام مركزي، فمنح الشعوب المختلفة حكماً محلياً، وبذلك تجنَّب أخطاء الولايات اليونانية، ونجح في تحقيق سلام دائم وعادل ساد ردحاً من الزمن.

إذن، فدراسة الظروف السياسية عند قيام التحالفات أو الاتحادات الفيدرالية هي جوهر التاريخ اليوناني الروماني، لأن ذلك العامل لا يتوفر في أي منطقة أخرى من مناطق العالم القديم بقدر ما يتوفر عند الإغريق الرومان. وأسهمت روما في قيام الفيدرالية عن طريق تقدُّم العلوم السياسية، كما استطاعت عن طريق بلورة النظرية السياسية للتاريخ السياسي أن تقضي على الفوضى بين المدن اليونانية رغم أنها لجأت في تطبيقها للقوة. وهكذا لجأت روما إلى القوة في النهاية، لأن قيام

الأحلاف بدافع الرغبة لم يتحقق، وفي الحقيقة نجح استخدام القوة في تحقيق السلام والوحدة السياسية مهما يقال عن هذا المبدأ ومهما يهاجمه بعض المؤرخين من الناحية الأخلاقية.

وباستثناء بعض الحروب التي خاضتها الامبراطورية الرومانية، ساد السلام إبان القرنين الأول والثاني الميلاديين، وبهذا وضعت روما حلولاً لمشكلة عانت منها الحضارة اليونانية كثيراً. ويحق للمؤرخين أن يطلقوا على الامبراطورية الرومانية صفة العالمية، لأنها حاولت أن تترجم تأملات وأقوال الفلاسفة إلى حقائق سياسية، فحققت السلام العالمي (أو **السلام الروماني**)، ويمكن أن نوجز أفكارنا في عبارة واحدة هي "**أن السلام الروماني وفَّر على كثير من الدول غير الرومانية مهمة إنشاء وحدة فيدرالية تجنبها الصدام والحروب**".

لقد تبين لنا من مناقشة أسباب اندلاع الحروب أن السبب الأول كان يكمن في افتقار الفكر عند الإغريق إلى النضج، وكيف أنهم تأثروا بنزعة التعصب الأعمى لنظام المدن الدول، ثم استطاعت روما أن تستفيد من حقل التجارب الكبير الذي مرت به بلاد اليونان ودول الشرق الأوسط في ميادين الوحدة والإدارة واستطاعت – بفضل تطوُّر

علم التشريع وبفضل مشاركة المدارس الفلسفية – أن تقيم هيكلاً سياسياً ضمن استتباب الأمن والسلام.

وبعد الفوضى السياسية يأتي "**التعصب القومي**" كسببٍ من أسباب الحرب، وهي في الحقيقة مشكلة عامة في التاريخ البشري كله، وهي أيضاً مشكلة نفسية، لذا بدأت المدرسة الحديثة في التاريخ تنادي بضرورة الاستفادة من علم النفس، بل يحاول بعض الأساتذة تكوين علم جديد هو: **علم النفس السياسي** لأن علماء النفس يرون أن الحروب تصدُر من الإنسان بدافع الغريزة، إذ مصدرها غرائزي في الإنسان نفسه. ويقول براتراند راسل في ذلك: "**إن الإنسان بدافع الغريزة يقسم الناس إلى أصدقاء يحالفهم وأعداء يحاربهم**"، والذين يقولون إن تصرفات الإنسان عبر العصور، وليدة المنطق والعقل مخطئون في ذلك بلا شك، لأن المنطق وحده لا يحكم تصرفات الناس، بل يشترك في ذلك العامل العاطفي النفسي.

وقد هاجم كثير من الفلاسفة القدامى والمحدثين "**الإنسان**" لهذا السبب ووصفوه بأنه "**شرير**" ونسمع عن كثير من العبارات مثل "**نظرية الصراع السياسي**" أو "**قانون الغاب**"، ومن ثم طابق علماء النفس فكرة

أن الإنسان عدواني بطبعه على الدولة وهي النظام الذي يجمع الناس. وقد قال أحد الفلاسفة الأيونيين الذين عاشوا في القرن السادس قبل الميلاد – واسمه هيراكليس من مدينة إفسوس – قولاً مأثوراً، هو: "**إن الحرب مصدر كل شئ ومالكة كل شئ، والصراع جوهر الحياة**". وكذلك نجد أفلاطون الذي كرس جزءاً كبيراً من أبحاثه وكتاباته للشئون الداخلية للمدينة اليونانية يرى أن الحرب حتمية، فيما يختص بالعلاقات السياسية الخارجية بين الدول. وهاتان العبارتان تلخصان وجهة نظر سادت بلاد اليونان وهي أن الحرب ظاهرة عادية فى الحياة السياسية، وأن الحرب والسلام كالشمس والمطر، أي أن الحرب والسلام كتقلبات الجو فى الطبيعة.

ونتيجة هذه الفكرة، آمن الإغريق بأن سيطرة القوي على الضعيف أمر طبيعي وأن من حق الأقوى أن يحكم الأضعف، ويظهر ذلك بوضوح في الأدب اليوناني القديم. أما المؤرخ ثوكوديديس فقد فلسفها في حوار جدلي، ونطق به على لسان سياسي أثيني يخطط لتدمير دويلة جزيرة ميلوس المتمردة، فيقول على لسان هذه الشخصية التى تبرر عدوان أثينا على ميلوس:

"إن العقيدة تجعلنا نؤمن

والمعرفة تجعلنا نعرف

– أن الآلهة والناس –

– بدافع حتمي نابع من طبيعتهم –

يميلون إلى السيطرة والتحكم كلما أتيحت لهم الفرصة

وليس لدينا إلا أن نستغل هذه الظاهرة جيداً

لأنكم يجب أن تعلموا أنكم أو غيركم سوف يفعل ما نفعل

لو تحقق له نفس القوة".

ورغم أن تدمير ميلوس كان صدمة عاطفية في التاريخ اليوناني، إلا أن أرسطو لم يستنكر هذه المأساة، بل كتب عن الحرب يقول: "**إن فن الحرب مهارة طبيعية للسيطرة والتملك، إنها مثل فن الصيد، وهو فن اعتاد الناس على ممارسته ضد الحيوانات المفترسة، وضد الناس الذين لا يرضخون لهم، رغم أن الطبيعة شاءت لهم أن يكونوا محكومين بواسطة الغير، والحرب – بسبب هذا – إملاءٌ من جانب الطبيعة".**

ومن الغريب أن النظرية نفسها جاءت عند ميكيافيللى عندما برر محاولات التوسع من جانب الدول بأنها أمر طبيعى، إذ وجهة نظر الإغريق هي أن الإنسان "**حيوان مقاتل**" منذ البداية، وليس حيواناً اجتماعياً فقط، وإن الناس منذ الأزل يبغون السيطرة على طريق القوة والعنف، ويذهب بعض الفلاسفة المؤرخين إلى أن رسالة السلام لابد أن تبحث عن استغلال طاقة الصراع الغريزي في نفس الإنسان وتحويلها إلى مجال سلمي، فمثلاً لعبت المباريات الرياضية بين بلاد اليونان دوراً كبيراً في إقامة حوار اجتماعي وثقافي بين هذه المدن المتنافرة.

لكننا لا ننسي أنه كثيراً ما ظهر حب البشر للعنف وسفك الدماء حتى في هذه المباريات، وبخاصة عند الرومان، وأن الأباطرة الرومان اهتموا اهتماماً كبيراً بمثل هذه الرياضة، لسبب نفساني هو صرف نظر مواطنيهم عن ممارسة العنف، على الصعيدين: السياسي والعسكري، وكمحاولة للتنفيس عما يجيش في نفوس مواطنيهم. الحرب، إذن، في نظر بعض المؤرخين تنفيس نفساني لغريزة "**العدوان**" الموجودة في نفوس الناس، لكن برتراند راسل يرفض هذه النظرية بقوله: "**ليس هناك ما يبرر الاستمرار في هذه البربرية**".

ويخرج المفكرون من تحليل الفرد إلى تحليل الأمة على الأسس نفسها، فالحكومات ما هي إلا كالفرد تحس بإحساسه، ولها أخطاؤه ومزاياه، وبعض الحكومات تندفع نحو الحروب بدافع جنون الجماهير نحو الحرب أو ما يسمى بـ "**هستيريا الحرب**" و"**هستريا الجماهير**"، وبخاصة في حالات الحروب العدوانية، بصرف النظر عن الجانب الأخلاقي الذي كان دائماً عاملاً ثانوياً في أحداث التاريخ.

وعادة ما تشعل الحروب العواطف الوطنية، وقد قيل إن "**الوطنية هي الغذاء الروحي للحرب كما أن السلاح غذاؤها في ميادين القتال**"، وحب الوطن دافع غريزي فينا، والحرب الدفاعية ما هي إلا نوع من أنواع الوطنية القتالية، ورسالة الوطنية القتالية الدفاعُ عن مصالح الفرد ونظامه السياسي ضد قوى الشر والعدوان. لكن هناك نوعاً آخر من الوطنية، هي الوطنية العنصرية، وهي وطنيات أو مقومات عدوانية تقوم أساساً على الاستعلاء العنصري، وسرعان ما تترجم هذه العاطفة العنصرية إلى عنصرية قتالية عدوانية، ومن هنا تنبع الحرب العدوانية.

والتاريخ اليوناني الروماني، ملئ بمثل هذه الأمثلة لأنه ملئ بالحروب العدوانية، وهو حقل تجارب قد يساعد باحث التاريخ على

تفهُّم النزعات العدوانية الحديثة التي يشهدها عالمنا المعاصر مثل: الفاشية والنازية والصهيونية، وقد يكون الباعث لهذه القوميات العدوانية تعصب ديني أو عنصري أو تعصب لنظام أو مبدأ سياسي معين. والعلاقة بين "**العدوان**" و"**العنصرية**" وثيقة الصلة، فكلا منها يؤثر في الآخر، والدافع للعنصرية دافع نفساني يكمن في الإحساس بأن "**الأجنبي عدو**"، والتمسك بالجنس والدم وتقسيم الشعوب على أجناس سرعان ما يولد التنافر بينها، وقد تتخذ غريزة (الصراع) أو (القتال) الشكل العنصري ومن ثم تتولد الحرب العنصرية، وهناك مؤرخون يتهمون العبرانيين بأنهم المسئولون الأوائل عن إشعال نار القومية العنصرية.

فيقول مايكل جرانت بالحرف الواحد: "**إن مجتمعنا الحديث لم يرث من اليهود الأخلاقيات التوحيدية الكبرى التي قدر لها أن تنتشر، بل توارث عنهم أيضاً العنصرية التي كانت نتاج نعرتهم الدينية، وقد أخذ هذا العامل الأخير منذ البداية الشكل العنصري، وهو أمر مختلق إذا ما راعينا أن اليهود في تكوينهم جنس غير خالص بل مختلط، فاليهود لا يعتبرون أنفسهم فقط "شعب الله المختار" بل إنهم الجنس البشري المختار، أضف إلى ذلك أن**

حركة التبشير اليهودية قد نجحت في ضم أجناس غير عبرانية إلى الدين اليهودي، وبخاصة بعض القبائل الأوربية التي ينحدر منها اليهود المعاصرون الأوروبيون الذين يطلق عليهم اسم "الشكنازيم"، إذن فقد كانت نعرة اليهود الدينية والعنصرية دافعاً ومسبباً لحروب عدوانية ضد الفلسطينين القدماء والمعاصرين".

وكثيراً ما نجد حالات تخوض فيها أمم الحرب وراء الملك، ومن أجل الملك، ودفاعاً عن جنس الملك، الذي كان يعتبر دفاعاً عن دينهم، فالملوك عند المصريين كانوا آلهة، كما يدعى **الإغريق** أن جدهم الأول كان ابن إله، وكذلك نجد الإحساس نفسه عند **الرومان** عندما آمنوا بأن روموولوس، جد **الرومان** مؤسس مدينة روما، سليل الربة **فينوس** والرب **مارس** إله الحرب، وادعى ملوك **البطالمة** في مصر أنهم من سلالة الآلهة، بل مارس **البطالمة** عادة زواج الأخ بالأخت حفاظاً على نقاء السلالة الآلهية الحاكمة، كما فعل فراعنة مصر من قبل.

ونعرة الانخراط من جنس أو سلاسة مؤلهة تخرج من نطاق الفرد الحاكم إلى نطاق الشعب بأكمله، عندما يعلن قوم أنهم ينحدرون من

سلالة شخصية معينة، فقد ادعى **الدوريون** أنهم ينحدرون من سلالة هيراقليس البطل الأسطورى الإغريقي، وبرروا حربهم العدوانية ضد أهل **البيلوبونيز** الأصليين بأنها حرب مشروعة وسموا غزوهم لهذه المنطقة "**بعودة أبناء هيراكليس**". إذن، نجد الاستعلاء العنصرى يسود بعض دوائر المدن الإغريقية ويساعد في تعصبها وكبريائها. وأيضاً نجد الإحساس بالنعرة القومية يخرج من حدود الدولة إلى حدود الجنس الشامل، فقد أحس الإغريق عامة باستعلاء عنصري عندما اعتبروا كل من ليس إغريقياً "**بربري**".

وقد يتساءل الباحث عن أسباب اندلاع الحروب في أثينا خلال القرنين السادس والخامس والرابع قبل الميلاد. وعن دوافع الحماسة والعاطفة لهذه الحروب والحماسة لنظام الأثينيين السياسي أو ما سموه بـ "**الديمقراطية الأثينية**"، وهي تختلف اختلافاً كبيراً عن النظام المعاصر الذى يتخذ هذا الاسم، إذن لم يكن نظام الحكم تمثيلياً برلمانياً، أي لم يكن للشعب ممثلون عنه، بل تعني أن **المواطنين الأحرار** يتمتعون بحق حضور **المجالس الشعبية**، ورغم الدعاية السياسية الضخمة التي بثتها أثينا عن ديموقراطيتها واستغلالها لهذه الدعاية في حربها ضد الأسبرطيين

إلا أن النظام الأسبرطى، الدكتاتوري الجماعي لم يختلف كثيراً في الجوهر عن النظام الأثيني المسمى بالديمقراطي، بل ربما اشتق الأثينيون نظامهم من الاسبرطيين، لأننا في كلتا الحالتين نجد نوعاً واحداً من المواطنين يتمتع بحقوق وامتيازات وهم الأحرار الأثينيون في أثينا والسادة الاسبرطيون في اسبرطه، وقد كان هؤلاء "**المواطنون الأحرار** هم جسد الأمة الأثينية وهم الذين تشتعل قلوبهم بالغيرة والقومية والوطنية من أجل مدينتهم.

ونجد أفلاطون عندما يسجل لنا قائمته عن نظام الحكم الإنساني يورد ديمقراطية الأثينين فى نهاية القائمة، لأنه أشار لخطورة الانحراف إذا أسئ استخدام الديمقراطية، فمن السهل جداً إثارة الغوغاء بالخطب الحماسية ذات المواقف الدرامية. وليتجنبوا مثل هذا الخطأ أنشأ الأثينيون مجلساً آخر يناقش الأمور قبل عرضها على **الجمعية العامة**، هو **مجلس الشورى** لكن القوة الفعلية ظلت متمركزة في **المجلس الشعبي** لكثرة عدد أعضائه إذ اعتبر هو "**الشعب**"، وسيكولوجية التجمهر أمر جدير بالدراسة، لأن في التجمهر منطلق للعواطف المجنونة التي تفقد الصواب، ومن ثم فقد دفع ذلك إلى ظهور الديماجوجية في أثينا، ودفعت أثينا ثمن

الجنون الذي سببته في الجماهير وفي قراراتها العمياء، وخلاصة القول، أن الهيستريا القومية تكمن في التجمهر، والتجمهر يؤدي إلى العمى.

ولقد أعجب كثير من الكتاب بوطنية الإغريقي لدولته، لكن مثل هذا الاتجاه يتجرد من مميزاته عندما تنقلب الوطنية إلى عدوان وحرب عدوانية، وإلا لما أدان العالم الحديث الفاشية والنازية والصهيونية، وأقام من أجل ذلك محاكمات نورمبرج لمحاكمة مجرمي الحرب من النازيين، وكما ندين الوطنية العدوانية الإغريقية يجب أن ندين الوطنية العدوانية الرومانية، لأنها كانت مصدر الكثير من الحروب ضد شعوب مسالمة، وفى الحقيقة فإن هذه القومية العدوانية هي المسئولة عن حالة الفوضى السياسية بين بلاد اليونان، إذن فأسباب الحروب العدوانية هي الفوضى السياسية، أولاً، ثم الإحساس بالقومية والوطنية العنصرية ثانياً.

والتركيز على ما هو ثقافي مقابل ما هو عرقي عنصري أحد أهم أسباب تهيئة الأجواء للسلام كسمة للعلاقات بين الأمم، فمثلاً نجد ايسوقراط يقول: "**إن لقب يوناني لم يعد دليل عنصر بل رمز ثقافة**"، وقد أخذت الثقافة تحل محل الجنس في مفهوم القومية الهلينية، ورغم هذا التقدم الكبير في توسيع دائرة الفكر الإنساني، إلا أن النزعة الهللينية

العنصرية سرعان ما كانت تتحول إلى وطنية عمياء، وبخاصة عندما تتصادم مع شعوب أجنبية كالفرس وغيرهم من الشعوب غير اليونانية، ممن سماهم الإغريق "**البرابرة**".

ويأتي تخلخل النظام الاجتماعي كسبب ثالث للحرب، فقد كان اليونان في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد يقبلون راضين النظام الاجتماعي السائد وقتئذٍ، وهو النظام الإقطاعي الاستغلالي، ويقبلون أيضا وجود نظام العبيد كحقيقة مسلمة لا تقبل النقد أو المعارضة، كما أن النظام الاجتماعي كان يقوم على أساس الوراثة الإقطاعية كما لقي هذا النظام قبولاً من جانب بعض الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو، وكلاهما لا يدينان نظام الرق بل يقبلانه ويعترفان به، ورغم أن نظام الحكم تغيَّر في بلاد اليونان بعد طرد الفرس، وتحوَّل من حكم الفرد إلى حكم الشعب، — وهو ما تعنيه كلمة ديمقراطية — إلا أن النظام لم يتغير في جوهره عما كان عليه سابقاً، وبخاصة في نظرته إلى نظام الرق، فقد حرمت التشريعات الديمقراطية الجديدة العبيد من جني الثمار السياسية أو الاجتماعية التى اكتسبها المواطن الإغريقي، حتى النساء اليونانيات

أنفسهن لم يعتبرن "**أحراراً**" ولم يتمعن بحقوق المواطنة، كما أن عدداً كبيراً من السكان اعتبرهم النظام الجديد غرباء، كطبقة الصناع.

إذن الديمقراطية الأثينية كانت ديمقراطية مغلقة على الذين يسمون أنفسهم بالأحرار فقط (حتى دون نسائهم)، وهم الذين اعتبروا مواطنين كاملين، وفي اسبرطة عانى المواطنون أعباء اقتصادية ضخمة لأن نظامهم السياسي – حيث أقلية عنصرية تحكم أكثرية – أملى عليهم التضحيات في سبيل السيطرة على الموقف، ويرى الفيلسوف أيسوقراط أن المعدمين معذورون في استهتارهم تجاه الدولة.

إن تدخل بعض المدن اليونانية في حروب من أجل إنقاذ طبقة حاكمة في مدينة أخرى يتصل بصراع الطبقات في بلاد اليونان، فقد شاع السخط السياسي بعد تدهور الحواجز التي كانت تفصل بين المواطنين، إذن فالحرب الأهلية الاجتماعية – أو الفوضى السياسية – في العالم الهلليني أدت أحياناً إلى حروب خارجية، لأن الطبقات الاجتماعية المتقاتلة ساعدت بعضها البعض، عبر الحدود على المستوى الدولي.

وفي بعض الأحيان، نجد الأحزاب الاجتماعية المتقاتلة على استعداد لطلب العون حتى من قوى أجنبية غير إغريقية مثل قرطاجة، وقد

كان طلب المساعدات العسكرية من خارج المدن اليونانية ضد طبقات اجتماعية معينة أمراً شائعاً في بلاد اليونان، رغم أن كلاً من الطرفين المتقاتلين كان يدعي تمسكه بالمبادئ التقليدية للمدينة اليونانية: الحرية والاستقلال والاكتفاء الذاتي. وقد شبَّه أفلاطون النظام الأرستقراطي الأوليجاركي بالجسد المريض الذي تتصارع أعضاؤه مع نفسها، فالمدينة سرعان ما تصبح مريضة تبعاً لذلك.

فهي سرعان ما تتورط في حروب بسبب طلب المتقاتلين مساعدات من خارج الحدود، وقد تزايد إحساس تفضيل الولاء للنظام الاجتماعي على الولاء للدولة في العصر الروماني، حيث كانت الأطراف المتقاتلة تستدعي روما لمساعدتها، والحق يقال إن هذه الظاهرة لم تكن في بلاد اليونان فقط، بل نجدها حتى في قرطاجة أيضاً، فعندما ضاق الأوليجاركيون ذرعاً بآراء هانيبال دعوا الغزاة الرومان عام 196 ق. م. ضد زعيم البلاد نفسه.

و"**التاريخ اليوناني عني بنماذج كثيرة للبطولات الرائعة ولكنه في الوقت نفسه ملئ بمواقف صارخة للخيانة. وإن من بين الخونة من هم أعظم الساسة الإغريق**"، إذن فالخيانة مشكلة أخرى تلي

مشكلة الولاء للنظام الاجتماعي ووضعه فوق الدولة. وبصرف النظر عن الحماسة العمياء للإغريقي تجاه فكرة سياسية أو عنصرية معينة قد تدعوه للخيانة فقد كان "**الفقر**" العامل الأساسى للخيانة، وكانت "**الرشوة**" لا تقاوم من جانب الاغريقي المعدم، وقد ذكر هيرودوت أن الاسبرطى لا يرفض الرشوة أبداً!.

وثمة عامل آخر له تأثيره فى المتاعب الداخلية، وبخاصة فيما يختص بالاضطرابات الاجتماعية وهو "**نظام الرق**"، ومعناه وجود قطاع من الناس محرومين من كل الحقوق حتى "**الإنسانية**"، وقد ساد هذا النظام فى معظم دول العالم القديم، وبخاصة في آشور وبابل، لكن بالنسبة لبلاد اليونان زاد عدد العبيد منذ أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس، حيث كانت جزيرة خيوس بالقرب من شاطئ آسيا الصغرى تقوم بدور السوق الدولي لتجارة العبيد، وكان العبيد مصدراً للطاقة البشرية.

ومن بين عدد سكان أثينا في عام 430 ق. م. (حوالي 155.000) نسمة كان حوالي سبعين ألف عبيد. ومن سكان أتيكا (حوالي 315.000) كان بينهم 115.000 عبد، وزاد عدد العبيد

وأهميتهم في الاقتصاد إبان القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، ويقال إن ما يقرب من 20 % من سكان روما أو ثلثها كانوا عبيداً.

وفي هذا الوقت كانت جزيرة ديلوس القريبة من آسيا الصغرى هي سوقهم الدولية، وكلما زاد عدد العبيد ساءت أحوالهم الاجتماعية لدرجة لا توصف، وقد بلغ الظلم الاجتماعي ضد العبيد أقصاه في مناجم لاوريون مصدر الفضة الأول لمدينة أثينا، وكان الحال أشد سوءًا في روما لدرجة أن الروماني رأى أنه من الأوفر اقتصادياً أن يشترى العبد ويستهلكه حتى الموت، ثم يشتري آخر على أن يعتني بالعبد ليعيش طويلاً. وزيادة أعداد العبيد كانت نتيجة للحروب، وأصبحت الحرب تدفع بأيدٍ عاملة رخيصة، ولذا، كان هناك من يحرص على زج البلاد في حروب ليستفيد من العبيد. إذن الحرب لم تكن مشروعاً سياسياً، بل كانت ذات هدف اقتصادي. وعلى ذلك، فبدلاً من التخلص من الشعوب المهزومة ارتأى الإغريقي أو الروماني أن من الأفيد بيع السكان كعبيد لتغطية نفقات الحرب.

كانت آسيا الصغرى مصدر العبيد الأكبر لروما، وقد أغرق السوق الروماني بجموع من العبيد نتيجة للحرب هناك، كما أن جامعي

الضرائب الرومان استرقوا الفقراء من الناس لعجزهم عن دفع المتأخرات. كما تدفقت حشود العبيد على روما بعد معارك قيصر الدامية ضد الغاليين. وفي كلتا الحالتين استفادت طبقات الرأسمالية الرومانية من سبايا الحرب، ومن الواضح أن مجلس الشيوخ الروماني تردد كثيراً فى اتخاذ عمل حاسم ضد قراصنة البحر الأبيض المتوسط، لأنهم كانوا خلية حية فى نقل العبيد والاتجار فيهم، وكانت روما المستهلك الأول لهم، ولم تتخذ روما إجراءً حاسماً ضد القراصنة إلا عندما زادت سطوة هؤلاء القراصنة وكادت أن تهدد مصالح الامبرطورية الرومانية نفسها.

ولم يكن السكان في المستعمرات الرومانية أسعد حالاً بل تدهورت حالتهم الاقتصادية منذ القرن الأول قبل الميلاد وسرعان ما أدى سوء الأحوال الاقتصادية — سواء عند الشعوب المقهورة أو العبيد — إلى تفجر حركات تمرد واسعة ومن ثم اضطرار روما لخوض حروب دامية للقضاء على هذه الثورات، واستخدمت روما القوة داخل إيطاليا نفسها ضد الإيطاليين الساخطين والعبيد المتمردين. واندلعت ثورات وحروب ضد روما وبخاصة فى آسيا الصغرى وجزيرة صقلية — التى اشتهرت بأنها معقل العبيد ومركز ثوراتهم — كما شهدت صقلية حركة تمرد بين 103،

99 ق. م. عرفت بضراوتها وبربريتها عندما قاد سبارتاكوس جحافل العبيد وسيطر على مناطق شاسعة فى جنوب إيطاليا، لكن الرومان أخمدوا هذه الثورة ببربرية لم نسمع عنها فى التاريخ من قبل. وأخيراً وليس آخراً، يجب ألا ننسى الإشارة إلى الحرب الاجتماعية التى خاضتها الشعوب الإيطالية بين 90 – 89 ق. م. بهدف الحصول على حقوقها السياسية.

وكثيراً ما أدى ضعف الحاكم إلى فوضى سياسية، وبالتالى اندلاع الحروب، أضف إلى ذلك سطوة الارستقراطيين في العالم القديم وحبهم للقتال ونزعتهم الطبيعية نحو العدوان، فالحرب عندهم رياضة كالصيد في وقت السلام، ولم يكن ذلك وقفاً على الحال في بلاد اليونان وحدها، لأننا نجد في مصر مثلاً في القرون الأخيرة قبل أن يفقد هذا البلد استقلاله، نجد طبقة ارستقراطية حاكمة ميالة إلى القتال والاقتتال، وفي بلاد اليونان مثلاً نحس بسطوة هذه الطبقة وشدة حبها للحروب حتى من بين أبيات **الإلياذة والأوديسا**.

أما بالنسبة للرومان، فقد كانت عظمة الوطن الشغل الشاغل لأحلام القادة والعظماء، وكلمة العظمة أو المجد مرتبطة كل الارتباط

بالمجد العسكري والانتصار في ميادين المعارك، لقد كانت عظمة الوطن الدافع الأول لحروب شنتها روما على شعوب مسالمة وغير مسالمة، ف "**العظمة**" هي التي دفعت يوليوس قيصر لأن يسير غازياً في سبيلها، وأن يسفك دماء غزيرة بطرق مجردة من الإنسانية، كتب مفاخراً بها في إحدى مؤلفاته العسكرية عن حرب الغال. ولم يكن اكتافينوس أقل وفاء لعظمة روما من يوليوس قيصر لكنه كان أقرب منه ميلاً إلى السلام، ولذا نراه يلبس انتصاراته السياسية والدبلوماسية الثوب العسكري، ثم يطلق أبواق دعايته سواء عن طريق شعراء البلاط أو عن طريق إقامة النصب التذكارية التى تردد أعماله العظمى وفتوحاته الكبرى من أجل عظمة روما.

وقد يكون حب القتال في الدولة القديمة ناتجاً من أن مهام الدولة كانت وقفاً على الرجال وحدهم، فلا نكاد نعرف نساء كثيرات (اللهم إلا بعض الملكات) وصلن إلى مراكز قيادية قديماً، فالنساء أقرب إلى المسالمة وتأييد للسلام من الرجال، أو على الأقل كان ذلك اعتقاد الكاتب الكوميدي الساخر ارستوفانيس عندما كتب مسرحيته الهزلية "**لوستراتا**" في أحلك أيام أثينا أثناء الحروب البيلوبونيزية الكبرى، لقد تخيَّل الشاعر الساخر – وأثينا محاصرة ومغلقة على نفسها كقلعة يحيط

بها الأعداء — انقلاباً تقوم به النساء في محاولة لوقف القتال الدائر بين الإغريق، وللحفاظ على الرجال الذين تناقص عددهم ونَدَر وجودهم.

وفي التاريخ الروماني، ارتبط السلام والوصول للعرش بمعيار الكفاءة، فلقد جاء أعظم أباطرة عصر السلام الروماني أمثال تراجان وهادريان وانتونينوس بيوس وماركوس أوريليوس إلى العرش عن طريق نظام الاختيار للخلافة، وقد نعمت الامبراطورية في عهودهم بأزهى درجة من التقدم والرقي والرخاء الاقتصادي والسلام، والسبب في ذلك واضح، فبعد اغتيال دومينيانوس عام 96 ميلادية خلفه الامبراطور نيرفا، وكان شيخاً متقدماً في السن، إلى جانب أنه قضى سنوات عديدة يعمل في حقل المحاماة، فاتخذ من اغتيال دوميتيانوس عبرة في وجوب تحطيم فكرة وقف الاختيار على أفراد أو دائرة الأسرة الحاكمة، فكان أول من عيَّن خليفة له خارج حدود الأسرة الحاكمة، وبذلك جعل الكفاءة والقدرات الطبيعية الهدف الأول في تعيين نظام الخلافة، وقد كان من ثمار هذا التجديد الجرئ خيرة الأباطرة مثل: تراجان وهادريان.

وجدير بالذكر أن كليهما لم يكن من دم غير أرستقراطي فحسب، بل أكثر من ذلك كان كلاهما ينحدر من أصل غير روماني إذا

كانا إسبانيين. وهكذا أثبتت هذه الحقبة أن نظام الخلافة أسلم بكثير من التوارث أو الاختيار بالقرعة، والدليل على ذلك سيادة السلام الرومانى إبان عصور الأباطرة الذين جاءوا إلى الحكم عن طريق هذا النظام.

وبظهور السلام الروماني اختفت العوامل الأساسية التى أدت لاندلاع الحرب، فاختفى التفكك السياسي كما اختفت النزعة القومية المتعصبة والإحساس العنصري نتيجة تكوُّن دولة واحدة متعددة الأجناس، وقلت حدة الصراع الطبقي وقل عدد العبيد نسبياً، وتحسنت أوضاعهم الاجتماعية بظهور التشريعات التي وضعتهم محل اعتبار لأول مرة، وفي أعقاب ذلك عمَّ الرخاء وقويت روما اقتصادياً، في ظلال الاختيار الموفق لأباطرتها. وظلت الامبراطورية الرومانية تنعم بهذا الرخاء والسلام حتى عصر ماركوس أوريليوس.

ورغم ما عرف عن هذا الامبراطور من ثقافة فلسفية عالية فقد ارتكب خطأ كبيراً عندما عين ابنه كومودوس وريثاً له على العرش، محطماً التقليد السابق، وبالطبع أصبح نظام الأباطرة منذ ذلك اليوم نظاماً وراثياً. ويسمى ذلك اليوم "**يوم النحس**" في التاريخ الروماني، وكان ذلك في عام 166 ميلادية إذ سرعان ما تدهور السلام واغتيل كومودوس ثم اندلعت

فى أعقاب ذلك حرب أهلية مريرة استمرت ثلاث سنوات من 193 على 196 ميلادية وتلا الحروب الأهلية حروب أخرى.

فقد اختفى نظام الاختيار وحل محله نظام الوراثة الأسرية السابقة، وقد استخدم كثير من الأباطرة القوة والعنف لتحقيق ذلك بل استخدمت القوة للوصول إلى العرش، وباختصار حلت القوة محل الكفاءة والقدرات الطبيعية، وكان من نتائج هذا الإجراء الغير موقف أن تفككت الامبراطورية الشاسعة ومرت الامبراطورية بأيام شبيهة بالأيام التى مرت بها الدويلات اليونانية أثناء خبرتها بالصراعات الداخلية والحروب الاجتماعية، إذ سرعان ما أدى الصراع الداخلي إلى التدخل الخارجي، فضلاً عن أن الدولة تكبدت مبالغ طائلة فى مواجهة هذه الحركات، كما كلفتها الحروب الأهلة الكثير، ما أدى إلى الانهيار الاقتصادي، وكان على الامبراطورية الرومانية أن تمر بما يقرب من مائة عام (بعد قرار الامبرطور ماركوس أوريليوس) بحروب أهلية متعاقبة وحروب بين الأسر المتصارعة على العرش، إلى جانب الحروب الخارجية قبل أن يجيئ مرة أخرى سلسلة من الأباطرة الأكفاء، لكن مجيئهم كان متأخراً، فلم تكن الامبراطورية قادرة على أن تعود إلى شبابها.